الفصل التاسع

هل حقا الإنسان يبحث عن السلام؟!!(*)

« نظرة نفسية»

* تمهيد.
* الدوافع التدميرية.
* الميول السادومازوخية.
* الميول السيكوباتية.
* هذاءات العظمة.
* هذاءات الاضطهاد.
* الشخصيات المتبلدة أو الفصامية.
* الإنسان والسلام.
* السلام والدين.
* اقتراحات.
* خاتمة.

(*) ترجمة البحث الذي ألقاه المؤلف في المؤتمر الدولي الثامن لعلم النفس عبر الثقافي، الذي عقد باستانبول (تركيا) في يوليو ١٩٨٦. وقد نشرت هذه الترجمة بمجلة علم النفس، عدد : ٢، ١٩٨٧، القاهرة.

تمهيد:

بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب العالمية الثانية، أصبح الجنس البشرى مهددًا بالأسلحة الذرية ذات التدمير المرعب. وعلاوة على ذلك فإن توقع الحرب الذرية يؤثر تأثيرًا هائلًا على الاقتصاد العالمى. فالولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى يزيدان سنويًا من ميزانية تسليحهما حتى وصلت إلى بضع مئات من ملايير الدولارات سنويًا فى ميزانية كل منهما على حدة وأتوقع أن هذه المئات من الملايير سوف تتزايد سريعًا حتى تصبح آلافا حيث انخفض سعر البترول إنخفاضًا حادا، الأمر الذى سوف يوفر مزيدًا من المال تنفقه الدولتان على معدات الحرب والدفاع واستعداداتهما. وهذا الانفاق المجنون للمال على الأسلحة القتالية إنما يقود العالم إلى كارثة مدمرة: لكل من البلاد المتقدمة، إذا بدأت الحرب، ولكل من البلاد المتخلفة أيضاً، بسبب نقص المال الذى تحتاجه تلك البلاد لتنميتها، إذ تنفقه البلاد المتقدمة على تسليحها.

وقريبًا من هذا المعنى يقول لينوس بولنج Linus Pauling فى تقديمه لكتاب روجر ولش Roger Walsh المعنون «البقاء أحياءStaying Alive » (١٩٨٤): «مادامت السياسة الحالية للمواجهة مستمرة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى، ومادامت نسبة ضخمة من ثروات العالم تبدد على الاستعدادات العسكرية، فلن توجد عندئذ فرصة لعلاج مشكلاتنا.»

وفى ظرف كهذا (تعيشه البشرية الآن)، فإن كل العلوم الانسانية، خاصة علم النفس، عليها أن تقوم بدور متميز لمنع الحرب وتحقيق السلام. وأولى خطوات ذلك يجب أن تكون استكشاف الدوافع التى تحفز الناس للحرب وتلك التى تقودهم الى السلام. فهذه الخطوة سوف تكون المبدأ الأساسى الذى يقودنا إلى الخطوة الثانية؛ وأعنى بها هزيمة نوازع الحرب وتقوية إجراءات السلام فى مواجهة المشكلات. وما من شك فى صدق ما قاله السيناتور وليام فولبرايت: «إنه- فقط- على أساس من فهم سلوكنا فإننا نأمل أن نتحكم فيه بطريقة تضمن البقاء للجنس البشرى.» (٧- الصفحات التمهيدية). ولست هنا اتجاهل أو أنكر الأدوار الرئيسية التى تلعبها العوامل الاقتصادية والسياسية والتاريخية والجغرافية...، بل كل ما هنالك أنى أعتقد أن العوامل السيكولوجية فى موضوع الحرب والسلام لم تحظ من الباحثين بالاهتمام الجدير بها.

ولذا ففى هذا البحث أحاول إبراز بعض العوامل السيكولوجية التى تلعب دورًا هاما فى موضوع الحرب والسلام، وألقى مزيدًا من الضوء عليها، كما أقترح فى نهاية البحث بعض المقترحات بشأنها:

الدوافع التدميرية:

تعتبر الدوافع النفسية التدميرية Destructive Motives من بين العوامل السيكولوجية التى تمهد للحرب وتيسر الانزلاق إليها وتزينه، وتستبعد فى نفس الوقت الحل السلمى لما يجابهنا من مشكلات. وينظر إلى هذه الدوافع أحيانًا- كما هو الحال عند معظم المحللين النفسيين- على أنها دوافع فطرية غريزية فى الإنسان تدفعه للقيام بسلوك مدمر سواء له أم لغيره. وهذه الدوافع التدميرية يمكن أن تكون مكشوفة محسوسة وشعورية، كما يمكن أن تكون متخفية ولا شعورية. فإذا ماقمنا بتحليل موضوعى وأمين للعوامل المتخفية وراء حرب كالعالمية الثانية، أو الفيتنامية الأمريكية، فسوف نقتنع مباشرة بدور هذه الدوافع التدميرية؛ أعنى غريزة العدوان.

ومن الملاحظ أن هذه الدوافع التدميرية تلعب نفس الدور فى كل الحروب التى تنشأ فى أرجاء الدنيا. فعلى سبيل المثال، لا يستطيع الفرد أن يقبل - إذا كانت نظرته موضوعية نزيهة - تلك التبريرات التى تقدمها إيران ولا العراق لحربها «المجنونة»؛ خاصة وأننا نعلم أن كلا منهما تدعى أنها بحربها هذه إنما تدافع عن الإسلام. فمما لا شك فيه أن الحروب تستطيع أن تشبع بشكل كبير دوافع الإنسان التدميرية عن طريق التدمير الشديد الذى تحدثه فى كل من البشر والاقتصاد على السواء. لقد كتب أنتونى ستور Anthony Storr على غلاف كتابه المعنون «العدوان البشرى Human Aggression» (الذى طبعته سلسلة Pelican عام ١٩٨٥) هذه العبارة: «إن الحقيقة الكئيبة هى أننا أقسى المخلوقات على الأرض وحشية وأبعدها عن الرحمة».

الميول السادومازوخية:

الميول السادومازوخية Sado-Masochistic Tendencies عامل نفسى آخر متخفٍّ من العوامل التى تيسر التورط فى الحروب وتقاوم تحقيق السلام. وتعتبر هذه الميول عرضا مرضيا نفسيا يمكن ملاحظته فى بناء الشخصية عند بعض الأفراد، حيث تدفعهم هذه الميول إلى اشتقاق لذة شديدة من إيقاع الأذى بالآخرين، ومن ارتكابهم للأفعال العدوانية والوحشية، وفى نفس الوقت أيضا من وضع أنفسهم فى موضع الإهانة والتحقير والإيذاء والعقاب وتفضيل «البحث عن السلاح أكثر من البحث عن الطعام». ففى مثل هذه الحالات تصبح الحرب إشباعا مثاليا لمثل هذه الشخصيات المضطربة؛ حيث إنها تؤدى إلى ضرر مفزع لكل من يتورط فيها من كلا الجانبين.

ولعله يبدو واضحًا أن الميول السادومازوخية تلقى تدعيمًا من العامل السيكولوجى السابق الحديث عنه، أعنى الدوافع التدميرية أو الغريزة العدوانية.

الميول السيكوباتية:

إن الميول السيكوباتية Psychopathic Tendencies يمكن هى الأخرى أن تكون مسئولة عن التورط فى حرب. فالسيكوباتية اضطراب فى الشخصية لا يحترم فيه الفرد معايير المجتمع ويكرر فيه تصرفاته اللا أخلاقية وأفعاله المضادة للمجتمع دون إحساس بالذنب أو تعلم من خبرات سابقة. وبالتالى فإن السيكوباتية يمكن أن تؤدى إلى القيام باعتداءات مرضية شاذة، أو إلى القيام بتصرفات خطيرة تتصف بعدم تقدير المسئولية. فإذا كان هناك قائد (أو رئيس) من هذا النوع على قمة السلطة، فسوف يصبح الأمر مأساة ليس فقط لمجتمعه بل وأيضًا لغيره من المجتمعات. ولازال كثير منا يذكر مافعله أدولف هتلر فى الحرب العالمية الثانية، حيث تسبب فى قتل أعداد هائلة من البشر وتدمير عدد كبير من المدن.

هذاءات العظمة:

تعتبر هذاءات العظمة Delusions of Grandeur عاملا نفسيا آخر يمكن أن ييسر التورط فى حرب مدمرة ويؤدى إليها. فهذاء العظمة هو عرض مرضى عقلى، ويعنى اعتقادًا يسود فكر المريض بأنه شخص عظيم دون أن يسند هذا الاعتقاد واقع أو يدعمه منطق. ففى مثل هذه الحالة يقدر القائد (أو الرئيس) قوة بلده وكفايته الشخصية فى إدارة الحرب ضد عدوه وكسبها تقديرًا يفوق حقيقتها. ولقد كان أدولف هتلر مثلا واضحًا لهذه الشخصية. فلقد غالى فى تقدير قوة جيشه غلوا كبيرا، كما غالى أيضا فى تقدير كفايته فى إدارة دفة الحرب لدرجة أنه ورط نفسه فى محاربة كل من الاتحاد السوفييتى، والولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وفرنسا فى وقت واحد. فكان من نتيجة هذا التصرف الجنونى أن تسبب فى فقدان حياته الشخصية وفى تدمير بلده. وفوق كل هذا، فإن تصرفه هذا أدى إلى تقسيم ألمانيا إلى بلدين منفصلين؛ أعنى ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية. ولقد أصبحت هاتان الألمانيتان متضادتين فى

توجهاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ويمكن الآن أن تتورط كل منها فى حرب ضد الأخرى. ولا يمكن لأحد أن يتصور حدوث مأساة أكثر من هذه.

هذاءات الاضطهاد:

هذاءات الاضطهاد Delusions of Persecution هى أيضًا عرض مرضى عقلى يمكن أن يحفز القائد (أو الرئيس) المضطرب إلى بدء حرب أو إلى تفضيلها. ففى هذاء الاضطهاد يعتقد القائد فى دعاوى زائفة بأن الآخرين يكيدون للإضرار به أو تدميره هو أو بلده الذى يحكمه ويقوده، ولذا، فإنه يصبح متشككا ويفضل أن يأخذ موقف الهجوم ويبدأ خطواته عن أن يأخذ موقف الدفاع. ففى مثل هذه الحالة قد نجد بلده تورط بسهولة فى حرب. ويلاحظ أن هذاءات الاضطهاد هذه قد تكون مصحوبة بهذاءات عظمة (والتى تحدثنا عنها فى البند السابق)، أو لا تكون. فإذا كانت مصحوبة بهذاء عظمة يكون الأمر أيسر وأيسر على هذا البلد الذى يقوده هذا القائد المريض بالاضطهاد أن يتورط فى حروب كثيرة.

الشخصيات المتبلدة أو الفصامية:

الشخصية المتبلدة أو الفصامية Apathetic or Schizoid Pensonality هى العامل السيكولوجى الهام والأخير فى هذه العوامل التى عرضنا لبعضها كعوامل نفسية تكمن وراء الحرب والسلام. وهذه الشخصية تمثل حالة مرضية تجعل صاحبها منفصلاً عن الواقع، مخطئًا فى تقدير ظروفه، خلوا من المشاعر، وغير مكترث بشىء (أى لا مبال) Indifferent. فإذا كان قائد البلد (أو رئيسه) له هذا النمط من الشخصية، فإنه سوف يسئ تقدير العوامل السياسية وغيرها من ظروف الواقع وملابساته، والتى تعتبر ذات أهمية قصوى (فى تقدير المواقف واتخاذ القرارات المصيرية خاصة). كما أنه سيكون (أيضًا) غير مكترث بالتدمير الذى سيقود بلده إليه أو سيلحقه بعدوه.

الإنسان والسلام:

الإنسان فى حاجة ماسة إلى السلام. فهو يحتاج إلى السلام لبقائه حيا، ولرفاهيته، ولاستمتاعه بكثير من مباهج الحياة. وعلى الرغم من ذلك، ومما يدعو للأسف، أن الانسان - فيما يبدو - لا يبحث حقيقة وبأمانة عن السلام. فمباحثات السلام ونزع السلاح بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى لم تنجح حتى الآن ولم تحقق السلام. وما تكاد فى كل مرة تحقق هذه المباحثات خطوة نحو السلام حتى تتراجع بسرعة خطوتين إلى الوراء.. وهما يتقدمان نحو السلام ونزع السلاح ببطء شديد، بينما يخطوان نحو العداء والحرب بسرعة كبيرة. فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى الآن انشغل الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية ولا زالا فى مباحثات كثيرة متعلقة بالسلام بدون تحقيق نتائج حاسمة نحو السلام الحقيقى. فكل منهما تساند الحروب المندلعة فى كل من آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. وفى نفس الوقت تدعى كل منهما أنها تساند السلام وتجتهد من أجل منع الحرب ومقاومتها.

وإنه ليبدو لى أن المحللين النفسيين، خاصة سيبجموند فرويد Sigmund Frued وميلانى كلاين Melanie Klein على حق فيما أبرزاه من الدوافع النفسية التدميرية فى الانسان وأكداه. فافتراضاتهما المتعلقة بغريزة الموت Death Instinct تبدو، لسوء الحظ، أنها حقائق. حيث إن هناك الكثير من الشواهد سواء المأخوذة من الحياة أو من الأساطير، تؤيد الفرض الخاص بتواجد غريزة الموت ومظاهرها. فالكتب السماوية (القرآن عند المسلمين، والانجيل عند النصارى، والعهد القديم عند اليهود) تحكى لنا كلها نفس القصة عن القاتل البشرى الأول، قابيل، الابن الأكبر لآدم وحواء، والذى قتل أخاه هابيل، ابنهما الثانى. وهذه القصة ترمز إلى أن الميل التدميرى (العدوانى) إنما هو ميل متأصل ضارب الجذور فى تكوين البشر منذ خلقه. الأمر الذى يدلل

بقوة أيضا على حقيقة العوامل النفسية التى سبق لنا ذكرها على أنها تيسر التورط فى الحروب وتعمل على استبعاد السلام ومقاومته.

السلام والدين:

ولما كانت الميول التدميرية تتحكم فى البناء السيكلوجى للانسان، على نحو ما سبق أن ذكرنا، هبت الأديان تدعو للسلام وتحبذه وتحث كل الناس على أن يحيوا معا فى سلام (حتى تقاومها). ففى الاسلام - على سبيل المثال - نجد أسماء كثيرة قه من بينها «السلام». كما أن المسلم، أيضًا، عليه - إذا كان حسن الإسلام - أن يحيى غيره فردًا كان أم جماعة عندما يلقاه أو عندما يفارقه بقوله «السلامُ عليكم». وفى النصرانية يقال إن «الله محبة». كما نجد فى اليهودية أن أعظم ملوكها ونبيها «سليمان» قد حمل هذا الاسم عندما اعتلى العرش من كلمة السلام العبرية «Shlomoh». بل إننا نجد أيضا أن مدينة بيت المقدس قد اشتقت اسمها وهو Jeru Salem من إله السلام، وهى أيضًا تسمى «مدينة السلام».

هذا، إضافة إلى أن الأديان تحرم بشكل قاطع على أى مؤمن بها أن يرتكب تصرفات عدوانية، أو يقوم بسلوك يتسبب فى تدمير أو إلحاق أذى أو ضرر بأى فرد أو جماعة، إلا اذا كان دفاعًا عن نفس، أو مقاومة لشر، أو منعا لضرر أكبر.

اقتراحات:

من عرضنا السابق يتضح أن هناك «شهية» قوية فى البشر لأن يكونوا عدوانيين ومدمرين. وهذا الاشتهاء ييسر التورط فى الحروب وينتزع الانسان بعيدًا، بعيدا عن العيش فى سلام، ويحرمه من نشر السلام من حوله. ولذا فإنه يبدو حقا أن إشعال الحرب أسهل من صناعة السلام. فحروب مثل الحرب العالمية الثانية وحرب الأيام الستة اشتعلت خلال أيام قليلة، بينما خطوات

السلام فى مشكلة الشرق الأوسط - على سبيل المثال - بطيئة للغاية منذ عام ١٩٧٣ حتى الآن. ويرجع هذا إلى عوامل كثيرة، من بينها العوامل السيكلوجية، التى سبق أن أشرنا إليها، والتى تجعل من الأسهل على البشر التورط فى حرب عن اكتساب السلام وتحقيقه.

إن التحدى الضخم الذى يواجه البشرية الآن - من وجهة نظرى - هو الانتصار على تلك العوامل السيكلوجية التى تغرى الانسان بالتورط فى الحروب والعدوان وكل أنواع التدمير لنفسه أو للآخرين. وأعتقد أننا يمكننا الانتصار جزئيا فى هذا التحدى إذا حققنا بنجاح الاقتراحات التالية:

١ - يجب أن يوجد بين مجالس الدفاع والحرب فى الحكومات محللون نفسيون وأطباء نفسيون وعلماء نفس كأعضاء أساسيين. ففى هذه الحالة، سوف يقومون ببحث الدوافع الحقيقية للحرب وكشفها وتفسيرها لأعضاء المجلس الآخرين بحيث يجعلونهم على وعى أكبر بها. وعند ذاك فإن تبريرات إعلان الحرب أو الاستمرار فيها تنكشف. وعلى هذا يصبح قرار بدء الحرب أو تحاشيها قرارًا أكثر حكمة، وأفضل سلامة.

٢ - يجب أن تكون هناك الكثير من الأفلام التليفزيونية التى تصور التدمير المرعب الذى ينتج عن الحروب والذى يقع على أرواح البشر والاقتصاد معا مثل فيلم «اليوم التالى The day after». ففى مثل هذه الحالة سوف يدرك معظم الناس مقدار الآلام والمآسى ومختلف أنواع التدمير التى يمكن أن تؤدى إليها الحرب لكلا الجانبين المشتركين فى الحرب، يتساوى فى ذلك المنتصر والمهزوم. وسوف يخلق هذا خوفا شديدا من الحروب، ويقوى الرأى العام المناهض للحرب؛ الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى الضغط على القيادات حتى لاتتبنى قرارات الحرب وتصبح من أنصار السلام.

٣ - يجب القيام بتنظيم أحزاب وجماعات وحركات ومؤتمرات، وإصدار نشرات، وتنظيم أسبوع سنوى.. كل ذلك للدعاية للسلام ونبذ الحرب كاتجاه

فى حل المشكلات. وأعتقد أن الأسبوع السنوى الذى نقترحه للسلام يكون من الأنسب لو بدأ فى السادس من أغسطس لأنه فى مثل هذا اليوم حدث لأول مرة فى العالم أن ضربت مدينة بقنبلة ذرية وكان ذلك فى الحرب العالمية الثانية (هيروشيما باليابان فى ٦ أغسطس ١٩٤٥).

ففى حالة تنفيذ هذا الاقتراح سوف تكون هناك فرصة طيبة لمعظم المفكرين من مختلف الأيديولوجيات، ومن مختلف البلاد فى العالم لأن يروجوا للسلام ويساندوه، ولأن يقوموا بضغوط هائلة فى جانب السلام ضد الحرب. وسوف يعمل هذا، أيضًا على تكوين رأى عام وتقويته فى نفس الاتجاه.

٤ - يجب على كل المفكرين فى أنحاء العالم أن يساندوا بقوة كل الاتجاهات الانسانية الخيرة، والقيم السياسية والاجتماعية الطيبة، مثل المطالب العادلة لأن يحيا كل الناس فى سلام، وأن تستعيد الشعوب عن طريق السلام ترابها الوطنى المحتل وأن تكون لكل الناس إرادتها الحرة فى اتخاذ قراراتها السياسية والاجتماعية، وأن تكون لها كل الحقوق الإنسانية التى تستمتع بها شعوب البلاد المتقدمة.

كما يجب على كل المفكرين أيضا أن يقوموا بالدعاية لمباحثات السلام ومساندتها عند محاولة علاج المشكلات وحلولها، مع تحاشى الترويج للحلول العدوانية أو تدعيمها.

وعليهم أيضا أن يستنكروا وأن يقفوا ضد أى بلد له رغبة غير مشروعة فى تدمير الآخرين، أو الاستيلاء على ترابهم الوطنى بالقوة، أو إحداث إضرار غير مشروع بالآخرين.

ولاشك أن تنفيذ هذه الاقتراحات إذا نجح سوف يقلل كثيرا من العوامل التى تدفع إلى الحروب وإلى مختلف أنواع الاعتداءات.

خاتمة:

لقد استعرضت فى هذا البحث بعض العوامل النفسية التى يمكن أن تسهم فى تيسير التورط فى الحروب، كما تسهم فى استبعاد السلام، مثل الدوافع التدميرية، والميول السادو مازوخية، والخصائص السيكوباتية، وهذاءات العظمة، وهذاءات الاضطهاد، وسمات التبلد الانفعالى. كما أوضحت «شهوة» الإنسان للحروب وكراهيته للسلام، سواء أكان ذلك على المستوى الشعورى أم اللاشعورى. وأتبعت ذلك باقتراحات أربعة يمكن أن تقوم كأساس ضد إغراءات العدوان، كما يمكن - فى نفس الوقت - أن تقلل من شغف الانسان بالحرب وأن تزيد من فرص الحلول السلمية للمشكلات. فإذا كنا حقيقة نبحث عن السلام، وجب علينا جميعا أن نؤيد مثل هذه الاقتراحات وأن نتخذ كل الاجراءات والخطوات التى تدعم السلام وتستبعد الحروب والتصرفات العدائية.

وإنه لمن المعروف عامة أن كل الجنس البشرى سوف يعانى ويلات التدمير والضرر إذا مانشبت حرب ذرية. فنحن، على الأرض، شديدو الشبه بأولئك الموجودين فى سفينة واحدة وسط البحر، إن تحطمت غرق الجميع وماتوا. لهذا يجب علينا جميعا أن نقاوم بكل مانستطيع ضد الحرب، وأن نذهب إلى أبعد مدى فى تأييد السلام فوق ربوع العالم كله؛ وإلا سوف يتهدد وجودنا كله كجنس بشرى بسبب ميولنا التدميرية المقيتة.

المراجـــع

١ – بطرس عبد الملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، الصادر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، بيروت، ١٩٧١.

٢ – **Freud. S.:** Beyond The Pleasure Principle, The International Psycho-Analytical Press, London, 1922.

٣ – **Halsey. W & E. Friedman (Editors);** Collier's Encyclopedia, Collier, Inc., Now York, 1980.

٤ – **Klein. M.;** The Psycho-Analysis of children, The Hogarth Press, London, 1975.

٥ – **Storr A.,** Human Aggression, Pelican Books, 1985.

٦ – **Taha, Farag A.,** Does Mankind Really Search For Peace? A Psychological View, A Paper Read in 8 International congress of Cross-Cultural Psychology, Istanbul, Turkey, July 6–10 1986.

٧ – **Walsh, R.,** Staying Alive, New science Library, London, 1984.